ذكرى أخى الهراوى

للأستاذ على الجندى

قبل وفاة صديق المرحوم الهراوى بشهر ، أرسل إلىّ بطاقة لطيفة حمّلها (ألف قبلة وتحية) ورجانى فيها أن أزوره بمقر وظيفته ليحادثنى فى شأن من الشئون الأدبية . وقد عدتنى عواد عن تلبية هذه الدعوة فى حينها ، ثم ذهبت بعد ذلك إلى دار الكتب فسألت عنه ، فقال لى البواب : « تعيش » لقد توفى أمس إلى رحمة الله !

كانت الصدمة عنيفة أذهلتنى عن كل شيء حتى عن واجب العزاء لأسرته ، وحاولت أن أرثيه فلم أستطع ، فقد غال الحزن بيانى وغشى على مشاعرى ، وكان أنكى علىّ من ذلك ما تهامس به بعض الناس : من أنى أخللت بواجب الإخاء ! كأنهم لا يدرون — عفا الله عنهم — أن من الألم ما يحمى صاحبه الكلام كما يحميه الطعام !

والآن وقد انكسر الحزن ورسب سعيره فى الأعماق ، أهدى إلى روح صديق فى مسراه العلوى هذه الطاقة الشعرية مستنزلاً عليه الرحمة والرضوان العميم :

جهلَ العاذلونَ فيك مُصابى ... فأطالوا مَلامتى وعتابى
وأذاعوا : أنى بخلتُ بدمعى ... ورثائى على أبرّ الصِّحابِ
وعزائى عِلْمى بأنك تدرى ... ما أعانى من حُرقة واكتئاب
رُبّ باكٍ يذرى دموع التماسيـ ... ـح من الموجعات خالى الوطاب
وجليدٍ يفترُّ عن سنّ جذلا ... ن طوَى كشحه على الأوصاب
وخلىّ الفؤاد من لاعج الحبّ (م) يُرى صابياً وليس بصابى
أعذرُ الناس من دهته الرزايا ... ونهتْ دمعَه عن التَّسكاب
فهنيئاً لهم بكوْا فاستراحوا ... وكتمت الجوى ، فطال عذابى
أيها اللائمون عدُّوا عن اللو ... م وقيتمْ — على الإساءة — ما بى
لو بكم ما بنا ، وبان عليكم ... للبستمْ به سوادَ الغراب
لا يحسّ الآلام من دينه اللـ ... ـهو ولا يدْرِكُ الصبى بالتصابى
كثرت بيننا الجياد ولكن ... قصبُ السبقِ للمذاكى العِراب
وحمامُ الرياض يبكى فنشجَى ... حين تبكى مطوّقاتُ الرّقاب
كيف ينسى الوداد مثرٍ من الجـ ... ـد رفيع الذُّرا كريم النِّصاب
مُعْرِقٌ فى الوفاء يجرى على العر ... ق ويسرى فى بُلجة الأحساب
لا وربى لم أنقض العهد يوماً ... لا ولا بتّ سالياً أحبابى
أنا أكسوهم المدائح أحيا ... ء ، وأروى صداهمو فى التراب
وأصوغ الرثاء فيهم رياحيـ ... ـن تمجّ الشذا على الأحقاب

* * *

يا أخى فى الوداد ، والودُّ أبقى ... أثراً من علائق الأنساب
ومُعينى على نوائب دهرٍ ... أنا منها ما بين ظفر وناب
ومَنارى إذا دجا الشك حولى ... وتنكبت عن طريق الصواب
وصفيى ، وجُلُّ من أصطفيهم ... صُورُ الإنس فى طباع الذئاب
كنت أخشى طوارق السوء إلا ... طارق الموت لم يقع فى حسابى
أين أيامنا نواعم كالغيـ ... ـد تخايلْنَ فى رقيق الثياب
بين صبح مُفضّضٍ ، وأصيل ... شرِق الأفق بالنُّضار المذاب
نسجتْها يد الزمان من البهـ ... ـجة والأنس والأمانى العِذاب
فهى من عمره الربيعُ المُوشّى ... وهى من عمرنا لُباب اللُّباب
وليال كأنها من سَناها ... ومضات الأحداق خلف النقاب
نتساقى بها الودادَ سُلافاً ... أين منها سلافة الأعناب
كيف مرّت بنا عِجالاً فكانت ... كحباب طفا على الأكواب
أو كطيف الحبيب يدنو به الغمـ ... ـض وتُقصيه رقصةُ الأهداب
خُلَسٌ من بشاشة العيش ولّتْ ... تستحث الخطا لغير إياب
آه لو سامنى زمانىَ فيها ... بشبابى ، شريْتها بشبابى

* * *

فجعتنا المنون بالشاعر الملـ ... ـهم آى البيان والإعراب
بالأديب المِفنّ من يسكب المعـ ... ـنى رحيقاً فى المنطق الخلّاب
بِمُحيل الطروس روضَ جنان ... مونِقاً للعيون والألبـــاب
بسجيح الطبع الرقيق الحوا ... شى وسرىّ الخُلْق النقىّ الثياب
بمؤدّ حقّ الأخلاء فى النا ... دى وحق الإله فى المحراب
جامع الخلّتين : ظرف الأدبا ... ء ، ونُسْك المُطهّر الأوّاب

* * *

يا لذكرى هاجت بلابل صدرى ... وأعارتْ قلبى جناحىْ عُقاب
قَلِقٌ تحتىَ الوسادُ كأنى ... أتنزّى على رؤوس الحراب
بين ليلين : من دجى وهموم ... ناهضات إلىّ من كل باب
مثّلا لى الخضمّ (١) يغشاه موجٌ ... تحت موج مجلل بسحاب

(١) نظم للآية الكريمة « أو كبحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب » وشتان بين كلام الخالق والمخلوق